أبو العلاء المعري

دراسات

رحلتي إلى معرّة النعمان

تحقيق

محمد توفيق زهران

رحلتي إلى معرّة النعمان

بقلم: محمد توفيق زهران

[والمَعَرِيُّ رَغَمَ العَمى] ضَوْءُ سَقطٍ يَهتَدي التائهونَ مِن أنوارِهِ ([1])

بعد عودتي من المهجر الكندي لزمت بيتي في عمان مدة من الزمن لدراسة مصنفات أبي العلاء المعرّي وما أن استقرت نفسيتي (بالابتعاد عن الأنام) حتى قررت زيارة ضريح المعرّي في معرّة النعمان وكذلك مشاركة أهالي المعرة الكرام في مهرجان أبي العلاء المعرّي الثقافي.
غادرت مدينتي عمان في الأردن متجهاً إلى دمشق يوم 24/9/2005م ثم توجهت إلى المعرّة عاصمة الأدب العربي بواسطة إحدى الحافلات الحديثة، وعندما وصلت بنا الحافلة إلى ساحة المعرّة قال قائدها عبر المذياع الداخلي أهلاً بكم في مدينة فيلسوف العرب أبي العلاء المعرّي وردّد قول الجواهري:

قِــف بـالمعَـرةِ وامسَـح خَدَّها التـرِبـا واستـَوج مـن طَـوَّقَ الدُّنـيـا بـمـا وَهَـبـا

فقلت في نفسي: حقاً إنَّ المعرّي قد غزا أفكاري ولكن لا تتناسى يا أبا توفيق ما قاله:

[ومـا أَسـأَلُ الأَحـيـاءَ بَـعـدي زِيــارَةً

ثَـلاثـاً، لإيـنـاسِ الـدَّفـيـنِ ولا سَبعا] ([2])

وبقيت جالسا في مقعدي أفكر بالعودة إلى بيتي في عمان احتراماً لقوله هذا قبيل رحيله عن الدنيا، وفي لحظات عابرة التمست الإذن بالزيارة من روح أبي العلاء المعرّي المسيطرة على أفكاري فتخيلته قد أذن وقال:

[أهلا بأهل العلم والأدب، وسهلا لأهل البحث في أدبي]

نزلت من الحافلة كأني سمعت صوت المعرّي يحذر الناس بقوله:

[وَيــبَـكُــم إن رَأَيـتُـمـونـي يَـومَاً

حَــبَّــةً فـي الثَّـرَى فَـلا تَـلـقُـطُـونـي([3])

أَنـا كالـحَـرفِ لَـيـسَ يُـنـقَـطُ، واللهُ

حَسِيـبُ الـجُـهَّـالِ إن نَـقَـطُـونِي([4])

بِـتُّ كـالـوَاوِ بَـيـنَ يَـاءٍ وَكَـسـرٍ

لا يُـلامُ الـرِّجـالُ إذ أَسـقَـطُـونِـي] ([5])

ثم توجهت إلى تمثال أبي العلاء الذي أقيم عام 1964 في حديقة المعرة تخليدا لذكراه كأنه فرقدٌ ثالث للفرقدين في كبد السماء يهتدي به كل من يبحث عن أدبه في معرّة النعمان وهذا هو السر في قوله:

[فَـاسـأَلِ الفَـرقَـدَيـنِ عَـمَّـن أَحَـسَّـا

مِـن قَـبـيـلٍ وآنَـسـا مِـن بِـلادِ([6])

كَـم أَقـامَـا عَلَى زَوالِ نَـهـارٍ

وَأَنـارا لِـمُـدلِـجٍ فـي سَـوَادِ] ([7])

بعد ذلك توجهت إلى الفندق لأريح جسدي من عناء السفر، فوجدت هناك عُرساً فرددت قول المعرّي في نفسي:

[كَـأَنَّ الشَّـدوَ فـي الأَعـراَسِ نَـوحٌ

وَأَصـواتُ النّـَوَادِبِ لَهـوُ عُـرسِ] ([8])

وفي اليوم التالي توجهت إلى المركز الثقافي المقام فيه المهرجان تحت عنوان [المعريّ شَمسٌ لا تَغِيبُ]، وهناك التقيت وفود الشعراء والأدباء والباحثين القادمين من الدول والمناطق العربية كافة لمشاركة أهالي المعَّرة الكرام افتتاح مهرجان أبي العلاء المعرّي الثقافي التاسع الذي يقام يوم 25 أيلول من كل عام. وتساءلت في قاعة المهرجان عن شعراء الزُهدِ، فلم أجد جوابا على سؤالي إلا قول المعرّي:

[وَقَـامَـت عَلَى أَهـلِ الـرَّشـادِ نَـوادِبٌ

وَغَـصَّـت بِـأهـلِ المُـنـدياتِ نَـوادي] ([9])

بعد انتهاء الفترة الصباحية من المهرجان توجهت مع الوفود لزيارة ضريح المعّري الذي أقيم في بيته اعتماداً على قوله:

[يـا جَـدَثـي، حَـسـبُـكَ مِـن رُتـبَـةٍ

كَـونُـكَ عَـن أَجـداثِـهِـم مَعـزِلا] ([10])

[أَمَـلَّـنـي الـدَّهـرُ بِـأَحـداثِـهِ

فَاشـتَـقـتُ فـي بَـطـنِ الثَّـرَى مَـنـزِلا] ([11])

وكان المعرّي قد سمى نفسه بعد عودته من بغداد رهين المحبسين

الأول: المنزل الذي اعتكف فيه واعتزل الناس لمدة 49عاما.

الثاني: العمى الذي حجب عنه جميع مشاهد الحياة وأضاف إليهما محبسا ثالثا وقال:

[أَراني في الثَلاثَةِ مِن سُجوني

فَلا تَسأَل عَنِ الخَبَرِ النَبيثِ([12])

لِفَقدي ناظِري وَلُزومَ بَيتي

وَكَونِ النَفسِ في الجَسَدِ الخَبيثِ] ([13])

ولم يخرج المعرّي من منزله إلا مرة واحدة شفيعا لأهل المعرة المحاصرة من قبل صالح بن مرداس حاكم حلب الذي حاصر المعرّة عام 417 هـ (1026م) وبعد أن نال مطلبه بفك الحصار عن المعرّة قال لأشياعه نادما:

[تَغَيَّبتُ في مَنزِلي بُرهَةً

سَتيرَ العُيوبِ فَقيدَ الحَسَد([14])

فَلَما مَضَى العُمرُ إِلاَّ الأَقَلَّ

وَحُمَّ لِرُوحي فِراقُ الجَسَد([15])

بُعِثتُ شَفيعاً إِلى صَالِحٍ

وَذاكَ مِن القَومِ رَأيٌ فَسَد([16])

فَيَسمَعُ مِنّيَ سَجعَ الحَمَامِ

وَأَسمَعُ مِنهُ زَئيرَ الأَسَد([17])

فَلا يُعجِبُنّي هذا النِّفَاقُ

فَكَم نَفَقَت مِحنةٌ مَا كَسَد] ([18])

ولم يأكل المعرّي طوال اعتزاله الناس لحم الضَأن إشفاقا عليه وقال:

[لَـو حَـاوَرَتـكَ الضَّـأنُ قَـالَ حَـصِـيفُهـا

الـذِّئـبُ يَـظـلِـمُ، وَابـنُ آدَمَ أَظـلَـمُ] ([19])

ورداً على رسالة ابِن أبي عِمرَانَ ([20]) حول امتناع المعرّي عن أكل اللحوم قال المعرّي في جوابه:

إنَّ الضَّائنة تكون في محل القوم وهي حامل، فإذا وضعت وبلغ ولدها شهرا أو نحوه، اعتبطوه فأكلوه، ورغبوا في اللبن، وباتت أمة ثاغية، لو تقدر سعت له باغية، وقد تردد في كلام العرب ما يلحق الوحشية من الوجد، والناقة إذا فقدت الفصيل، فقال قائلهم:

[فَـمَـا وَجِـدَت كَـوَجـدِي أُمُّ سَـقـبٍ

أَضـلَّـتـهُ، فَـرَجَّـعَـتِ الحَـنِـيـنَـا] ([21])

واكتفى المعرّي بأكل البقول(نباتي) والتين المجفف من الفواكه طوال حياته، وكذلك امتنع عن الزواج لكي لا يخجب لتطبيق نظريته في تعطيل الحياة مرة واحدة وقال:

[لَـو أَنَّ نُـفـوسِ النـاسِ رائِـيةٌ

كَـرَأيِ نَـفـسِـي، تَـنَـاءَت عَـن خَـزَايـاهَـا([22])

لَـعَـطَّـلُـوا هَـذِهِ الـدُّنـيـا، فَـمـا وَلَـدُوا

وَلا اقـتَـنَـوا، وَاسـتَـرَاحُـوا مِـن رَزَايَـاهَـا] ([23])

دخلت الوفود بيت أبي العلاء المعرّي، وبعد مشاهدتي ضريح أبي العلاء لأول مرة في حياتي قلت في نفسي:
[ليّتَ قبري يكُونُ مُنعَزِلاً، كَقبرِ أبي العلاءِ المعريّ]
ولكن، هل يحق لمهاجر مثلي أن يتمنى ذلك وهو بعيد عن مسقط رأسه؟ جهرت عندها بقولي:
[سوف تُدفَن يا ابنَ قَلقِيلِيةَ لا مَحالَةَ في مَدافِنِ الأَشرارِ]

وبعد قراءة الفاتحة على روح أبي العلاء تذكرت قولهُ:

[مَـتَـى مُـتُّ لَـم أَسـمَـع تَـحِـيَّـةَ واقِـفٍ

عَـلـيَّ، وَلَـم أَعـلَـم بِـإحـدَى المـآلِـكِ] ([24])

ثم توزعت الوفود بين الغرف الثلاث للتعرف على بيته المتواضع، (بعد إهمال دام قروناً من الزمن!)

ففي إحداها مكتبة تحتوي على مصنفاته الأدبية والفلسفية: ديوان سَقط الزّند، لزومُ ما لا يَلزَم وهو ديوان فلسفي والفُصولُ والغايات في تَمجيد الله والمواعظ، ورسالة الغُفران الشَّهيرةُ بين الأمم والتي اقتبس منها الإيطالي دانتي "الكوميديا الإلهية" ورسائله في الحِكَمة والأدب، ومراجع للباحثين في أدب المعري وقد نهلت منها مدة إقامتي في المعرّة حتى التشبع الفكري ويعلوها قوله:

[اقـرأ كَـلامـي إذا ضَـمَّ الثَّـرَى جَـسَـدِي

فَـإنَـهُ لَكَ مِمَّـن قـالَــهُ خَـلَـفُ] ([25])

كما ضمت مكتبة أبي العلاء مؤلفات عديدة عن حياته وشعره وفلسفته لمؤلفين عرب وأجانب، بمناسبة مرور ألف عام ميلادي على رحيله.

وبعد التأمل في جدران الغرف الضيقة، عشت فيها لحظات مع ذكريات أبي العلاء الذي كان يتجول بينها وهو يفكر في صياغة رسالة الغفران عام 424 هجري ردا على رسالة ابن القارِح ([26]).

(المنشورات على صفحات ذخائر العرب للباحثة الدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ) والذي قال في إحدى فصولها: وَيَنظُرُ -ابنُ القارح- فإذا عَلقَمَةُ بنُ عَبدَةَ فيقول:
لو شفعت لأحد أبيات صادقة ليس فيها ذكر الله سبحانه لشفعت لك أبياتك في وصف النساءِ أعني قولك:

[فَـإن تَـسـأَلــوني بـالنِّـسـاءِ فَإنَّـني

بَـصيــرٌ بِــأَدواءِ النِّــسـاءِ طَـبـيــبُ

إذا شَــابَ رَأسُ المَــرءِ أَو قَـلَّ مَـالُــهُ

فَـلَيـسَ لَـهُ فـي وُدِّهـنَ نَـصيـبُ

يُـرِدنَ ثَـراءَ المـالِ حَـيــثُ عَـلِمـنَـهُ

وَشَــرخُ الشَّــبـابِ عِـنـدَهُــنَّ عَـجـيــبُ]

ثم خرجت من الغرف إلى ساحة البيت فوجدت الأدباء والشعراء يتجادلون بعصبية حول طيف المعرّي في رسالة الغفران فسمحت لنفسي بالمداخلة بحذر شديد، فقلت لهم:

[لقد زرت المجني عليه في معرة النعمان، ولما سألت عن طيفه قالوا في رسالة الغفران]

فَلِمَ هذا الخلاف في طيف المعرّي؟ وأنتم على مسافة مترين من الضريح، فهل تسمحون لي أن أردد قول المعرّي لعله يسمعني من تحت الثرى إذ قال:

[إنّـا مَـعَـاشِرَ هَـذا الخَـلـقِ فـي سَـفَـهٍ

حَتَـى كَـأَنّـا عَلى الأَخـلاقِ نَـختَـلِـفُ] ([27])

فتدخل أحدهم وقال: من أين أنت قادم؟ قلت من المهجر الكندي عن طريق عمان عاصمة العرب.
قال: هل أنت متخصص في أدب المعرّي؟ قلت له: [علائي أنا في أدبي ومعرّي في مهجري]

فتدخل عريف المهرجان وقال: انتهى وقت الزيارة للضريح فهيا بنا نذهب إلى مُتحف المعرة حسب البرنامج المقرر، فقلت في نفسي:

[اعتِكافي في بَيتِ أَبي العَلاءِ ... خَيرٌ لِي مِن صُحبَةِ الشُعَراءِ]

وبقيت وحدي استنشق عبير الماضي الجميل وفاحت من حولي رائحة المأكولات النباتية من البقول والتين المجفف التي كان يفضلها المعرّي عن أكل اللحوم طوال حياته لقوله:

[فَـاتـرُك لأهـلِ المُـلكِ لَـذَّاتِـهِـم

فَـحَـسـبُـنـا الكَـمـأَةُ وَ الأَحبَـلُ] ([28])

وتمنيت في نفسي لو أن إدارة المركز الثقافي بالمعرة تقوم بتقديم هذه الوجبة الشهية للوفود الزائرة في بيت أبي العلاء مدة إقامة المهرجان حتى يشعروا بحياة الزهد والتقشف التي عاشها المعرّي في ذلك الزمان. فهل يحِق لي أن أقول كما قال المعرّي إلى عزيز الدولة والي حلب:

[لَقَـد أَسـمَـعـتَ لَـو نَـادَيـتَ حَـيـاً

وَلَـكِـن، لا حَـيـاةَ لِـمَـن تُـنـادي] ([29])

جلست متربعا بجانب ضريح المعرّي وأنا مثقل بالهموم لقوله:

[واجـلِـس بِـحَـيـثُ انـتـهـيـتُ مُـتَّـوِيـاً

فَـمَـا يُـبـالِـي الكَـريـمُ أَيـنَ جَـلَـس] ([30])

ووضعت رأسي بين يدي أفكر فيما قال المعرّي في طبع الإنسان قبل رحيله عن عالم ما هو إلا الغدر والجهل كما قال. وتساءلت: كيف أشكو له عُجري وبُجري([31]) وقد سبقني بالشكوى ابن القارح في رسالته لأبي العلاء،

وكيف يرد أبو العلاء المعرّي على شكواي إذا شكوت له غدر بني عصري، وهو مغيب تحت الثرى منذ أكثر من ألف عام فهل ما قاله في طبع الإنسان حقيقة؟ أقول نعم، فقد قال:

[وفــي الأَصــلِ غِـشٌ والفُــروعُ تَـوابـعٌ

وَكَـيـفَ وَفـاءُ النَّـجـلِ وَ الأَبُ غَــادِرُ؟] ([32])

وفي لحظة الصمت في المكان كأني سمعت صوت المعرّي يخاطبني من تحت الثرى قائلاً:

[شَـكَـوتَ مِـن أَهـلِ هَـذا العَـصـرِ غَـدرَهُـمُ

لا تُـنـكِـرَن، فَـعَـلى هَـذا مَـضى السَّـلَـفُ] ([33])

وأردفَ ناصحاً:

[جـاءَت أحـاديـثُ، ان صَـحَّــت فَــإنَّ لَهَـا

شَـأنـاً ولـكـنَّ فـيـهـا ضَـعـفَ إسـنَـادِ

فَـشـاوِرِ العَـقـلَ واتــرُك غَـيـرَهُ هَــدَراً

فـالعَـقـلُ خَـيــرُ مُـشـيـرٍ ضَـمَّــهُ النــادِي]

ثم اختفى الصوت، فأنبت نفسي لأني لم أستوعب أدب المعرّي في فترة الشباب، وبدأت أنظر إلى ضريح المعرّي بتمعنٍ شاكراً آل سُليمان الكرام في المعرّة على اهتمامهم بضريح بصير العرب منذ القدم. وكذلك القائل على إحدى اللافتات في بيت المعرّي:

[هَـذا القَـبـرُ لَـيـسَ بِـهِ تُـرابٌ

عَـلائِيٌ، ولكِـنَ فيــهِ مَـجـدٌ

وَكُـلُّ الـواقِـفـيـنَ بِـهِ غِـيـابٌ

وَأَنــتَ العَـقـلُ سَـطـوَتُـهُ أَشَــدُّ]

فالضريح الذي يقع في إحدى الغرف السابقة والمفتوحة حديثاً والمطلة على مدخل البيت بعد التوسعة، غاية في الفن المعماري، إذا قورنت بالماضي ولكن، (هذا لا يتناسب مع حياة المعرّي في ذلك الزمن)، فقد استوى الضريح أمامي على فرشة حجرية قطعة واحدة بطول 167 سم وعرض 100سم ارتفاع 145 سم وشاهدٌ نقش

عليه بالخط الكوفي اسم:

[أَبو العَلاءِ أَحمَدُ بنُ عَبدِ اللهِ بِنُ سُليمان]

أما الشاهد الثاني والذي نقشت عليه وصيته المشهورة بين الأمم:

[هَـذا جَـنـاهُ أَبـي عَـلَـيَّ

وَمـا جَـنَـيـتُ عـَلَى أَحـَد]([34])

فليس له أثر على الضريح، ومن المحتمل أنه قد سقط عليه جسم من سقف الغرفة القديمة منذ غابر الأزمان ففصله عن الضريح وضاع مع مرور الزمن! أو تحطم على أيدي خصومه وهم كثر من الذين عراهم في ديوانه الفلسفي [لزوم ما لا يلزم] والذين حملوا عليه في حياته بعد اتهامه بالكفر والزندقة، وكَفَّرَه من جاء بعدهم بالتقليد كما قال المؤرخ ابن العديم. وردا على الذين اتهموه بالكفر قال المعرّي:

[لَـحَـا اللهُ قَـومـاً إذا جِـئـتُـهُـم

بِـصِـدقِ الأَحـاديـثِ قَـالـوا: كَـفـَر] ([35])

والمعروف عن أبي العلاء أحمد المعرّي أنه قد رحل عن هموم الدنيا يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول من عام 449 هجري الموافق 9/5/1057 ميلادي نظيف الكفين له الرحمة بإذن الله.

وفي بيت المعرّي بدأت أقارن بين شعراء اليوم وشعراء الأمس الذين وقفوا يرثون أبا العلاء وهو مغيب تحت الثرى، ومنهم الشاعر أبو الفتح إذ قال:

[العِـلـمُ بَـعـدَ أَبِـي العَـلاءِ مُـضَـيَّعٌ

والأَرضُ خَـالِـيَـةُ الجَـوانـبِ بَـلقَـعُ

تَتَـصَـرَمُ الدُّنـيـا، وَيَـأتِي بَـعـدَهُ

أُمَـمٌ، وَأَنـتَ بِـمِـثـلِـهِ لا تَـسـمَـعُ]

وبعد انتهائهم من مراسم الدفن افترش الشعراء الأرض بأجسامهم والتحفوا السماء وفوقهم نجوم المعرّة تتلألأ برسالة الغفران.

وبعد مرور أكثر من ألف عام على رحيل المعرّي جاء الشاعر العربي محمود درويش ليقول في جداريته المشهورة:

[رَأَيتُ المَعَرِيَّ يَطرُدُ نُقّادَهُ

من قصيدته :

لَستُ أَعمى

لأُبصِرَ ما تُبصُرون فَإِنَّ البَصيرَةَ

نُورٌ يُؤَدّي، إلى عَدَمٍ أَو جُنُون]

أما رأيي بشعراء المهرجانات فأكتفي بقول المعرّي فيهم:

[وما شُعَراؤُكُم إلاّ ذِئَابٌ

تَلَصّصُ في المَدائِح والسِّبابِ] ([36])

ثم أخذت أفكر بمآثره الأدبية التي قالها قبيل اعتزاله :

[وَإِنّي وَإِن كُنتُ الأَخيرَ زَمانُهُ

لآتٍ بِما لم تَستَطِعهُ الأَوائِلُ] ([37])

فقد أصبح المعرّي بعد هذا التحدي بفكره مرجعا لعلماء الأدب العربي والاستشراق على حد سواء، ففي القرن العشرين قام المستشرق الفرنسي (ماسينيون) في عام 1928م بزيارة ضريح المعرّي وتمنى أن ينقل رفات أبي العلاء إلى البانتيون في باريس ليرقد إلى جوار زملائه من عظماء الفكر الإنساني. ولو تم ذلك لندبت اليوم وحدي في ساحة البانتيون في باريس مرددا قوله:

[وَيُحمَلُ مِن أرضٍ لأخرى ومَا درى

فواهاً لهُ بَعدَ البَلى يتَغَرّبُ] ([38])

ولكن أهل المعرّة الكرام قالوا كلمتهم في ذلك الوقت: [فيلسوف المعرة لن يتغرب]

وفي عام 1944م قام الدكتور طه حسين سلامة عميد الأدب العربي بزيارة لضريح المعرّي وهو الصديق

الصدوق لأبي العلاء فقد قال عنه: "شاعر في فلسفته وفيلسوف في شعره" ومن حق سوريا أن تقيم مهرجان المعرّي وتحتفي بعيده سنويا، فهو نابغة الأدب العربي.

وكان الشيخ طه حسين أول طالب عربي حصل على رسالة الدكتوراه عن تاريخ أبي العلاء المعرّي من الجامعة المصرية يوم 5 مايو من عام 1914 م وأشهر ما كتب: (مع أبي العلاء في سجنه).

وقد كتب الطبيب الشاعر/ إبراهيم ناجي صاحب قصيدة الأطلال الشهيرة مقالاً بعنوان: مقارنة بين عَلَمَيّ الشعر العربي (المعرّي والمتنبي) والذي قال فيه [أخذت التفت إلى أبي العلاء فوجدت نظرتي إليه قد تغيرت تماما وأعتقد أن ذلك ناشئ من نضج الفهم الأدبي على السنين [فالمعرّي، لا يصح أن يقرأه الناشئ ولا المثقف ثقافة سطحية]، كنت أعتقد خطأ أن فلسفة أبي العلاء هي مجرد رجل "يدمن" التفكير حتى أحطت بما كُتب عنه، فصار أبو العلاء في نظري [سقراطا[ثانيا، يسخر ويعلّم ويعلّم ويسخر، فصار على رأي ينكلفتش" ضمير الإنسانية "يستيقظ ويوقظ يقظة صارمة تثير الشك المفيد، وتدعو الناس إلى إعادة النظر في أمور الدنيا.]

وقد كتب المفكر السوري الأستاذ أنطون سعادة في كتابه المشهور (نشوء الأمم([39])) الفصل الأول:

]أثبتت العلوم الطبيعية على اختلافها أن الحياة أقدم كثيرا مما قال به التعليل الديني، وأنَّ الأنواع من حيوان ونبات متصلة اتصالا وثيقا ينفي مبدأ الخلق المستقل.. فيكون ما ذهب اليه الفيلسوف السوري الكبير أبو العلاء المعرّي من ارتباط الحيوان بالجماد رأيا يتفق كل الاتفاق مع نتائج المدرسة العلمية:

[والّـــذي حـــــارَتِ البَـرِيَّـــةُ فِـيــهِ

حَـــيَـــوانٌ مُـــسـتَـــحـــدَثٌ مِـن جَـمـــادِ].

ويقول الدكتور عمر فاروق الطبّاع في شرحه لهذا البيت الفلسفي في قصيدة غيرُ مجد في ديوان(سقط الزند) ص58:] إذا الجسم فارقته النفس بعد اتصالها به عاد إلى طبعه, فحياة الجسم ليستً كحياة النفس أي هي عرضية في قبائل حياة النفس الجوهرية وهذا هو تفسير قول المعرّي حارت البرية فيه أي تحيرت في موضع المعاد الجسماني. وقيل أراد بالحيوان المستحدث من جماد آدم الذي أنشأه الله من تراب[.

وبعد مراجعة هذا النص مع الدكتور غازي عناية قال:

إن هذا القول لا يتنافى مع الدّين، وفي أن الخلق ليس مستقلاً عن الخالق وهو أزلي في معادلة تتكون من معادلة فحواها: أن الوجود كله مرتبطٌ بالخالق، وهو واحد أزلي، ومستقلٌ بذاته لا يتعدد، ومخلوقٌ. وهو أكثر من واحد، ومحدث، وغير مستقلٍ في وجوده، ومتعدد سواءً بالنسبة للإنسان، أو الحيوان، أو النبات، أو الجماد، أو الكون كله.

وقد كتبت الدكتورة عائشة عبد الرحمن]بنت الشاطيء([40]) [في مقالها]انحسار الظّلام[

واسترد أبو العلاء مكانته فينا: الأديب المناضل، رفض الحياة في عصره احتجاجا على فسادها، واعتزلها إنكاراً لاختلال أوضاعها، وتصدى مع ذلك لقضايا مجتمعه ملتزماً بها من تلقاء ذاته، لم يحمله عليها سوى ضميره، ولا

ألزمه بها غير وجدانه الملهم وإنسانيته النبيلة المصفاة.

والضرير المبصر، حجبه العمى عن الدّنيا، وعزلته سجونه عن الناس، لكن هذه الحواجز لم تعزل وجدانه ولم تسدل الغطاء على بصيرته، بل لعلها ردته أرهف ما يكون حساً وأصفى رؤية، فكان من أعرف الناسِ بالناسِ كما قال. والمقيد الحر، باع كل الدّنيا ليشتري شرف ضميره ورأيه وانسحب من السباق متنازلاً عن كل شيءٍ في سبيل كرامته وحريته، وراضَ بِشرِيته على أقسى ضروب الحرمان، محققاً بسلوكه العملي كلمة قالها "الشَنفَرى" الشاعر الجاهلي الصعلوك من قديم الزمان:

[أُدِيمُ مَطالَ الجُوعِ حَتى أُميتَهُ

وأصرِفُ عَنهُ الذِكرَ صَفحاً فَأذهَلُ

وأستَفّ تُربَ الأَرضِ كَيلا يَرى لَهُ

عَلَيَّ مِن الفَضلِ إمرِؤٌ مُتَفَضِّلُ]

وأنه ليعيش اليوم حياً في ضمائرنا، يناضل من وراء ألف عام ليصحح فهمنا للأدب، ويحررنا من قيم أدبية ورثناها عن نُقاد سلفوا وعصور خلت، وظلت مسيطرة علينا تحتكم في ذوقنا للأدب، وتقديرنا لمنازل الأدباء وأقدارهم. وسيظل حياً في ضمائر الأجيال من بعدنا، ترى فيه أديب العربية الأكبر الذي استطاع أن يجد نفسه والظلمة من حوله كثيفة داجية، والذي يستطيع اليوم وغداً، أن يعلمنا رسالة الأديب وأمانة الفن وشرف الكلمة. ويعلمنا معها، بسالة المجاهدة وبطولة الاحتمال! وسلامٌ على أبي العلاء.

وقال الأديب ميخائيل نعيمة العضو المؤسس للرابطة القلمية في مقاله]رهين المحبسين[:

]بعد أعوام يغيب أبو العلاء أحمد المعرّي في رمسه. أما قصيدته "غَيرُ مُجدٍ" فتشرق أبياتها بنور ما يزال يتهادى على أسمنة السنين، واصلاً قُطراً بِقُطرٍ وجيلاً بجيلٍ. ولن يخبو هذا النور حتى تخلو الأرض من القبور. لعل من اختارته الحياة إناءً لمثل هذا النور ما يزال -من بعد ألف سنة- ناقماً على الحياة، وفي ريبة من أن الإنسان أبقى من الزمان وأوسع من المكان؟[

وقال الدكتور زكي مبارك الأستاذ بدار المعلمين العليا في بغداد في مقاله]هل كان المعرّي يكره الدنيا؟[

]إن أبا العلاء أعلن يأسه من الإنسانية، فهل استطاعت الإنسانية أن تحمي أهل الصدق والوفاء؟

إن أبا العلاء سخر من تعدد الديانات والمذاهب، فهل استطاع المصلحون أن يمحوا أسباب الخلاف بين الديانات والمذاهب؟ إن أبا العلاء جزم بأن بني آدم :

[ما فيهِمُ بَرٌ ولا صالحٌ

إلاَّ إلى نَفعٍ لَهُ يُجلَبُ]

فهل استطاع بنو آدم أن يقيموا الدليل على خطأ هذا الظن الأثيم؟

فأنا أشهد أن المعرّي كان رجلاً عظيماً، بدليل أنه عاش نحو ألف سنة على السنة الناس في المشرقين والمغربين، ولو كان حقيراً لمات يومَ مات!

المعرّي كما تخيله جبران

وكتب جبران مقالاً تحت عنوان " أبو العلاء المعري" في صحيفة مرآة الغرب الصادرة في المهجر الأمريكي عام 1914 قائلاً :

لقد مرّ ألف سنة على عهد أبي العلاء المعري ولكن أبا العلاء لم يزل حياً بحياة الفكرة البشرية كائِنا بكيان الروح المطلق.

وأبو العلاء وهو منحجب وراء ألف عليّة من نقاب الأبدية لفي غنى عن تمجيد وتبجيل الذين ما برحوا في قبضة المقاييس والكمية فنحن مهما فعلنا لا نستطيع أن نكرمه بعد أن مرت عشرة أجيال([41])على انعتاقه من ظلم الحياة وظلمة الجسد غير أننا نقدر أن نتخذ اسمه الكبير واسطة لتكريم نفوسنا ونقيم من أخلاقه النبيلة معاهد لأخلاقنا ونبني من مظاهر روحه الخالدة مساجد لأرواحنا. فإذا ما عيّدنا له لا نكون إلا كأطفال جائعين جلسوا حول مائدة شهية المآكل والمشارب. وإذا ما ترنّمنا متشجعين بذكره لا نكون إلا كقوم أخافهم هول الليل فهبوا قابضين على سيوفهم ورماحهم ـ وهل أوجد الشرق من الأسلحة المعنوية سيفا أمضى من اسم أبي العلاء أو رمحا أصلب من وجدانه؟ هل ظهر في سوريا فكرة أشد ذكاء من فكرة المعري؟ هل قام في الإسلام أو المسيحية روح تمردت على أوهام العصور وتقاليدها قبل أن تتمرد روح المعري؟

مهما علت أصواتنا لا تبلغ ذلك العالم الذي تسكنه نفس المعري. أما صوته الشجي الرهيب فقد اخترق عشرة عصور وبلغ مسامعنا كهدير مياه غزيرة . صوت هائل برقته ، رقيق بهوله صوت تأتلف بنبراته ضجة الأمواج مع تنهدات الورود وصراخ العواصف مع تغريد البلابل.

يرتفع بالأميال إلى مسارح الخيال المطلق ثم يهبط بالأماني إلى مسارح الحقيقة المجردة. صوت شاعر أعمى. صوت شاعر متألم متمرد. صوت متجبر متجلِد. صوت ملك من ملوك الفكر. صوت سوري عصامي يتوج لن يُخرسه الدهر حتى يغمر البحر جزيرة العرب ويُفني الموت آخر عربي عن وجه الأرض.

هذا هو أبو العلاء المعري وقد حبانا القضاء بجعل عظمته ميراثا لنا فعلينا ونحن بحاجة إلى امرئ نفتخر به أن نستثمر تلك العظمة ونعلم الآتين من بعدنا كيفية استثمارها.
علينا أن نقوم بواجب أولي نحو أبنائنا وأحفادنا بأن نرفع بين المنازل التي نبنيها لهم تمثالا جليلا لأبي العلاء ينظرون إليه ويستظلون بفيئِه ويومئون نحوه متفوقين عندما يجمعهم المستقبل بأبناء وأحفاد الذين يفتخرون بشكسبير ودانتي وملتون وجوث. ولهذا أطلب إليكم أيها السوريون أن تشاطروني شرف القيام بهذا المشروع.
اطلب من كل فرد منكم رجلا كان أو امرأة. اطلِب من العامل والأديب والتاجر والصحافي بل اطلب من كل من يحب نفسه ويكرمها أن يساعدني على إيفاء دَين أوجدته الحياة وأوجبته علينا نحو نفوسنا. ليس بينكم من

لا يستطيع المساعدة بأمر من الأمور فالذي لا يقدر أن يساعد بماله فليساعد بقلبه أو بمحبته ولكن إن كان بينكم من لم ترزقه الأيام مالا ولم تعطه الحياة قلبا ولم يهبه الله حمية فله أقول "لست بسوري وسوريا بغنى عن أمثالك" ([42]). المرآة- "إحدى جوائز النبوغ" كلمتنا في هذا الموضوع. فإن المنارة التي أقامها الله منذ ألف سنة في معرة النعمان واستضاء الشرق بها لا يليق بأبنائه نسيانها أو تناسيها. وفي كلمة اليوم لجبران كفاية للتذكير بواجب أدبي وطني خطير. ونود أن نرى للقول الحق تأثيراً ونسمع له صدى بتلبية الدعوة إلى إقامة التمثال.
الباحث: أبو توفيق زهران في مهرجان المعري بين الشعراء والأدباء.

وعندما جاءت الفترة المسائية ذهبت إلى المهرجان لكي أستمع لأقوال الشعراء والأدباء عن سيرة أبي العلاء ولكن بتردد لقول المعرّي:

[وَمَا أَدَّبَ الأَقوامَ في كُلِّ بَلدَةٍ

مِنَ المَينِ، الاّ مَعشَرٌ أُدَباءُ] ([43])

وقد لفت انتباهي في المهرجان الشاعر محمد الشيخ علي الذي خاطب المعرّي بألم بقوله:

[بَغدادُ حاضِرَةَ الرَّشيدِ، هَجرتَها

لَمّا عَلَيكَ بِها الشَريفُ قَد إِعتَدى

لَو زُرتَها لَوَجدتَ رُومًا خُلَّصًا

وَوَجَدتَ نَقفُوراً عَلَيّها السَّيِدا]

وبعد أن أنهى الشاعر محمد الشيخ علي قصيدته ذكرته بالموقف الشجاع لأبي العلاء المعرّي الذي كان مبصرا بين العميان في مجلس الشريف في بغداد عندما وقف بالمجلس مدافعا عن شاعر العرب أبي الطيب المتنبي والذي عرف بجرأته من كان في ذلك المجلس إلى مقبرة النسيان (أنظر إلى مقالي مع المعرّي في معرّة النعمان). ومن المعروف عن أبي العلاء أنه قد توقع احتلال العراق من قبل الروم منذ أكثر من ألف عام مضت، كما يحدث الآن من احتلال ومقاومة المحتل في المثلث العربي في العراق، حيث قال:

[هاتِ الحديثَ عَنِ الزَّورَاءِ أَوهيتا

وَموقِدُ النّارِ لا تُكرَى بِتَكرِيتَا([44])

والرُومُ سَاكِنَةُ الأَطرافِ، جَاعِلَةً

سِهَامَها، لِوَقودِ الحَربِ كِبرِيتا] ([45])

وبعد انتهاء مدة المهرجان صافحت أحد القائمين على إدارة المركز الثقافي في معّرة النعمان وقلت له:

[هنيئاً لِأبي العَلاءِ ، قَد تَحَرَرَ مِنَ الحَياةِ وَمِن غَدرِ البَشَر]

فرد على قولي بقول المعرّي :

[كُلُّنَا غَادِرٌ، يَميلُ إلى الظُّلمِ

وَصَفوُ الأَيَّامِ، لِلتَّعكِيرِ ([46])

وَرِجالُ الأَنامِ مِثلُ الغَواني

غَيرَ فَرقِ التَأنيثِ والتَذكِيرِ] ([47])

وأردف قائلاً: هل لاقيت صعوبة بالبحث عن أدب المعرّي؟ قلت: بحثي في مكتبة المعرّي كان مفيداً ولكنه كان مريراً، وشكراً للقائمين على إدارة المهرجان، ولأبي عبده أمين مكتبة أبي العلاء المعرّي في المركز الثقافي في المعرة وكذلك لناشري "اللزوميات" في دار الكتاب العربي في بيروت.

وفي يوم الجمعة 30 /9/2005 خرجت من الفندق وتوجهت إلى بيت أبي العلاء المعرّي للوداع والتيمم بترابه بناءً على قوله:

[تَيَمّمُوا بِتُرابي عَلَّ فِعلَكُمُ

بَعدَ الهُمودِ يُوافِيني بِأَغرَاضي ([48])

وَإن جُعِلتُ بِحُكمِ اللهِ في خَزَفٍ

يَقضي الطُّهورَ، فإنّي شاكِرٌ راضِي] ([49])

ولكني لم أجد ترابا حول قبره ولا أباريق من الخزف للطهور كما أوصى المعرّي، فالمسؤولية تقع على إدارة المركز الثقافي في معرّة النعمان التي لم تلتزم بوصية أبي العلاء! تاركا خلفي الإنسان العربي خالي الذهن من أدب المعرّي، إلا ما ندر، وفي طريقي من مدينة أبي العلاء المعرّي -المعرّة- إلى المهجر الكندي – أوتاوا- لزيارة أبنائي هناك عن طريق الأردن، رددت قول المعرّي في نفسي:

[أُولُو الفَضلِ في أَوطَانِهِم غُرَبَاءُ

تَشُذُّ وَتَنأَى عَنهُمُ القُرَبَاءُ] ([50])

معرة النعمان 2005 م

[1]) اقتبس الشاعر/ رياض معلوف أحد شعراء العصبة الأندلسية في البرازيل هذا البيت من ديوان]سقط الزند[للمعرّي.

[2]) ثلاثاً ولا سبعاً: أي الزيارة في اليوم الثالث والسابع من الوفاة "وهي عادة"

ويقول المعرّي: لن اطلب من الأحياء بعدي زيارتي في اليوم الثالث أو السابع من وفاتي لمؤانستي في قبري وهو القائل: "جوارُ بني الدُّنيا ضنًى لي دائمٌ"

([3] ويبكم: ويلكم إذا مات المعري فصار ذرة من تراب الأرض، فليحذر الناس التقاطه.

[4]) حسيب الجهال: يحاسبهم الله ، فالمعري كالحرف المهمل "غير المنقوط" فان حاول أحدهم نقطة والتعرض له بذم فليعاقبه الله.

([5] المعرّي يطلب من الرجال حذفه كالواو بين الياء والكسر، كما في وَجَدَ- يَوجِدُ. فلا عجب أن أهمله الناس، فهو أصلا لا يعطي لهم وزنا.

[6]) الفرقدين: كوكبان قريبان من القطب الشمالي ، يهتدي بهما المسافر. وآنسا : أبصرا. من ديوان سقط الزَّند.

[7]) المُدلِجِ: الذي يسير الليل كله. من ديوان سقط الزَّند.

[8]) يقول المعري: كأن الغناء "الشدو" في الأعراس بكاء وأصوات النادبات في المأتم كأنه عرس.

[9]) النوادب: النائحات. غَصَّت: ازدحمت. المنديات : المخزيات. نوادي: جمع نادي وهو المكان الذي يجتمع فيه الناس.

يقول المعري: إن النائحات بكين أهل الرشاد والنوادي ازدحمت بالفاسقين وأصحاب المصائب.

[10]) الجدث: القبر. مَعزِلاً: مُعتَزِلاً. يقول المعرّي: إن لقبري مجداً لأنه سيكون منفردا عن قبور الناس في أمان من شرورهم وهم موتى.

[11]) أَمَلَّهُ: أثار في نفس المعري الملل. توالت نكبات الدهر على أبي العلاء، مما جعله يتمنى الموت، فيسكن في جوف التراب.

[12]) النبيث: تراب البئر والنهر. سمي المعري رهين المحبسين لعماه ولزومه بيته، فزاد عليها هنا بأنه في سجون

ثلاثة وسيخبرنا بها فلا تبحث عن الخبر العميق المدفون.

([13] فالسجن الأول عماه والثاني بقاؤه في بيته، والثالث وجود نفسه في جسده الخبيث السيء.

[14]) البُرهَةُ: المدة الطويلة من الزمان، يقول المعري: تجنبت الناس مدة طويلة من الزمان في منزلي، ساتراً عيوبي عنهم، مبعداً عني شَرَّ حسدهم.

[15]) حُمّ الشيء: دنا، وحين مضى بي العمر إلا أقله وقرب زمن فراق الروح للجسد، بعثت رسولا.

[16]) شفيعا: وسيطا. صالح : هو صالح بن مرداس حاكم حلب الذي حاصر المعرة ، فأُرسل أبو العلاء شيخ المعرة فتم له ما أراد، لكنه ندم على فعلته، والمه أن يقف بباب صالح يستعطفه، فقال: أُرسلتُ في هذا العمر وسيطا إلى صالح بن مرداس، وكان رأي الناس بإرسالي إليه فاسد.

[17]) يسمع مني سَجَعَ الحمام: كناية عن الاستعطاف والرقة في الكلام. واسمع منه زئير الأسد: كناية عن التهديد والوعيد.

([18] نفقت محنة : أُزيلت. وقال المعرّي: لا يعجبني موقفي لما فيه من نفاق ولكن كم من مصيبة أُزيلت بالنفاق.

[19]) الضأن: الغنم. الحصيف: العاقل، يخبرك عاقل الغنم أن الذئب ظالم، غير أن الإنسان أظلم.

([20] أحد الدعاة في الدولة الفاطمية.

[21]) الوجد: الحزن الشديد. أُمُّ سَقبٍ: الناقة. الحنينا: الصوت الحزين الصادر عن الناقة لبعدها عن الفصيل.

[22]) رائية : ترى (القلبية). تناءَت: ابتعدت. الخزايا: المخازي والأفعال المعيبة.

[23])عطلوها: جعلوها بغير عمل، فزهدوا فيها. اقتنى: امتلك. الرزايا: المصائب. فما ولدوا: انقطعوا عن التناسل، استراحوا من مصائبها.

([24] المآلك: جمع مَألَكَة: الرسالة. يقول المعرّي، حين يموت المرَء لا يسمع رثاءً لحيٍّ عليه ولا يعلم ولا يسمع رسائل الأحيَاء إليه.

([25]اقرأ كلامي هذا، فان مت، فليكن دليلك، أتركه خلفا لي بين يديك.

[26]) ابن القارح: هو الأديب/ علي بن المنصور المولود في حلب عام 350هـ

([27] السّفهُ: الطيش والجهل. يقول المعري: إننا معاشر الكون في طيش وجهل حتى إننا نختلف فيما بيننا على السجايا الحسنة

والمروءات.

([28] الأَحبَلُ: اللوبياء. الكمأة: الفقع "تشبه حبة البطاطا"

لهذا ليس على الإنسان إلا الاقتناع بيسير الطعام الصحي وبسيطة كما فعل المعري طيلة حياته.

[29]) يصف المعرّي حالة العرب بالموت السريري إلى مندوب الدولة الفاطمية وقال: عزيز الدولة يعين الكسير بالجبر فكيف يأمر بإخراج ميت من قبر؟

[30]) مُتَّوِيَاً: مستقراً يقول المعرّي اجلس حيث ينتهي بك المجلس، لأن الكريم يبقى كريما أينما كان مجلسه، وهو لا يبالي أين يجلس لأن المكان لا يشرف صاحبه بل العكس صحيح.

[31]) العجر والبجر: العيوب والهموم، وقولهم: أفضيت إليك بعجري وبجري، أي أمري كله.

([32] النجل: الولد، يقول المعري: كيف يكون الابن وفياً إذا كان الأب غادرا؟!

([33]يقول المعرّي: شكواي من أهل هذا الزمان غدرهم الذي ورثوه عن أسلافهم، فلا تنكر ذلك.

[34]) يعتبر المعرّي إنجاب الأطفال جناية كما فعل والده أحمد المعرّي. وأبو العلاء لم ينجب أطفالا لأنه لم يتزوج ومات أعزبا.

[35]) يقول المعرّي: قبح الله أولئك الناس الذين تأتيهم بصدق الأحاديث فيصفون صدقك بالكذب.

([36] تلصَّصُ: تتلصص: تحتال لتكسب المال، فالشعراء كالذئاب تحتال لتكسب، لكنها تستخدم المديح والهجاء.

([37]الأخير زمانه: أي الذي أخر زمانه مدة من الوقت الضائع من حياة الإنسان.

([38] وهل ينقل رفاة المعرّي من أرض المعرة إلى أرض أخرى بعد الموت؟ وأها: كلمة للتعجب والندبة.

[39]) من محفوظات علي السبيتي في كندا

([40]من كتاب إعلام العرب 38، ص: 250

([41]الجيل: كل صِنف من الناس، التُّرك جيل والعرب جيل والروم جيل، والجمع أجيال. - لسان العرب.

([42] المصدر: كتاب [عقيدة جُبران] من محفوظات مكتبة على السُبيتي في أوتاوا.

[43]) أدب: دعاء. المين: الكذب، المعشر: الجماعة والأهل، يقول المعرّي: إن جماعة الأدباء في كل قوم تدعو إلى الكذب، لأن المديح والهجاء قائمان على المبالغة والكذب.

[44]) الزوراء: بغداد، هيت: موضع على شاطئ الفرات. تكريت: تقع في شمال العراق. لا تكرى: لا تطفأ أو تخمد أو لا تنام، يقول المعرّي إن النار كالسيوف المصقولة المسلولة للدفاع عن الأوطان.

[45]) وقود الحرب: الوقود مصدر وقد النار، ساكنه الأطراف: ثغور الروم، ومن قصد العراق عن طريق الجزيرة اقترب من تلك الثغور.

[46]) يقول المعرّي: نحن جميعا يغدر بعضنا ببعض، وجُبلنا على الظلم، وصفو الأيام مآله إلى العكر.

[47]) وكذلك الرجال مثل النساء لا فرق بينهم وبينهن في صفة الغدر والظلم، غير فارق التذكير والتأنيث.

[48]) تيمَّموا: تتطهروا. الهمود: الموت، يقول المعرّي: تطهروا، إن عز الماءً، بترابي بعد الموت، فقد أحقق مأربي من خلالكم.

[49]) وكذلك ان جعلت في أباريق خزفية تستخدمونها في التطهر قبل الصلاة، فإني أكون جِدَّ شاكرٍ للهِ على نِعمهِ.

[50]) أُولو الفضل: أصحابه، وواو "أولو" لا تلفظ ليسلم الوزن. تَشُذُّ وَتَنَأَى: تبتعد. القُرَبَاءُ: ذوي القرب.

جميع الحقوق محفوظة لدنيا الوطن © 2003 - 2017